ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [0.88].

الحرف والصناعات التقليدية في مدينة تلمسان
"مقاربة تاريخية وأنثروبولوجية واقتصادية"

أ.د. بوحسون العربي
أستاذ الأنثروبولوجيا
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة تلمسان – الجمهورية الجزائرية

مُلَخّصْ

تُعَدّ مدينة تلمسان من المدن الحضارية في القطر المغاربي بعامة، وفي الجزائر بخاصة. مرت بها عدة حضارات، واشتهرت بفضاءها الحرفي المتعدد الألوان والأشكال والرموز الذي تجسدت من خلاله ثقافة هذه المدينة عبر العصور، وما زالت تلمسان ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالصناعات التقليدية إلى وقتنا الحالي، حيث منحتها عدة خصوصيات ومميزات. نتناول في هذا البحث الصناعات التقليدية من خلال ثلاث مقاربات أساسية تشكل في مجموعها الإطار العام لفهم التطور التاريخي والثقافي والاقتصادي لهذه المدينة، وهي مقاربات علمية تمكن الباحث من الاطلاع على الحقائق القديمة والحديثة للمجتمع التلمساني. فأما المقاربة التاريخية تسمح بقراءة تاريخ هذه المدينة العريقة عبر تراثها المادي المتمثل في الإنتاج الحرفي المتوارث جيل عن جيل والذي يحمل في طياته فترات تاريخية وحضارية سابقة، وأما المقاربة الأنثروبولوجية لهذا التراث تتجلى فيما نسجته الصناعات التقليدية من رموز وأشكال هندسية معبرة عن ثقافة ظلت سائدة بين أفراد المدينة لفترات زمنية طويلة، وهي لازالت تعيد إنتاج هذه الثقافة اليوم في كثير من المناسبات والتظاهرات، وتحاول إبراز العلاقات الاجتماعية بين الأسر العريقة في الحرفة ولاسيما تلك المصاهرات والروابط العائلية والفنون والمهارات التي ظلت تقاوم كل أشكال التغير في المجتمع الحديث، بينما تبرز المقاربة الاقتصادية في الدور الحيوي لمختلف الحرف والصناعات التقليدية التي تستقطب مختلف الفئات الاجتماعية والمؤسسات الصغيرة من أجل المساهمة في التنمية الاقتصادية للبلاد.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	١٥	يونيو	٢٠١٤
تاريخ قبول النشر:	٢٢	سبتمبر	٢٠١٤

كلمات مفتاحية:
التواصل الحضاري، الصناعات التقليدية، التراث الشعبي، النشاط الحرفي

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:
بوحسون العربي. "الحرف والصناعات التقليدية في مدينة تلمسان: مقاربة تاريخية وأنثروبولوجية واقتصادية".- دورية كان التاريخية.- السنة العاشرة- العدد الخامس والثلاثون؛ مارس ٢٠١٧. ص١٣١- ١٤١.

مُقَدِّمَةٌ

شكلت الحرف والصناعات التقليدية على مر العصور ذلك الفضاء المتعدد الأنساق الذي يزخر بشتى أنواع المرجعيات التي يمكن للباحث أن يعتمد عليها لتفسير التطور الذي بلغه أي مجتمع في وقتنا الحالي. ولعل الدعوات المستمرة التي تتلقاها المؤسسات وأفراد المجتمع للمحافظة على الثقافة التقليدية المادية واللامادية كتراث شعبي يساهم في التنمية الحضارية والفنية والاقتصادية للمجتمع لدليل على القيمة الكبيرة التي يحظى بها هذا المجال. ولما كانت الحرفة تمثل جزءا هاما من تراث الشعوب، فإن العناية بها كموضوع للبحث والدراسة قد زاد من مكانتها في المجتمع وأصبحت تمثل بعدا استراتيجيا لدى الحكومات للتعبير عن هوياتها من جهة ولرسم خططها التنموية من جهة أخرى. لذا ارتأينا من خلال هذا البحث أن نقرأ الفضاء الحرفي في مدينة تلمسان من خلال ثلاث مقاربات نستعرض في كل مقاربة الدور الذي أدته الحرفة سابقًا ودورها الحالي، باعتبارها أداة من أدوات التحليل يمكن للباحث أن يوظفها لتفسير واقع المجتمع.

أولاً: المقاربة التاريخية

إن المتأمل في النشاطات الحرفية الباقية اليوم بمدينة تلمسان يستطيع أن يستنتج من الوهلة الأولى أن هذه المدينة ضاربة في أعماق التاريخ والحضارة، وكانت جل الأحياء والأزقة التي تقع في وسط هذه المدينة تحتضن مختلف الحرف والمهن التي تميزت بها بعض العائلات التي عرفت باسم الحرفة التي تقوم بها. فقامت بوظائف اجتماعية وثقافية واقتصادية مختلفة، كالتواصل والتقارب والزواج والتعلم ونقل المهارة والتجارة، حيث استطاعت أن تكون نسقًا اجتماعيًا يضم أنساقًا فرعية متمركزة سواء في البيوت أو في الأحياء تقوم بدور التلقين والتماسك الاجتماعي والتعاون، وتتمتع أغلب هذه الأنساق خاصة الكبيرة منها بأشكال متميزة من تقسيم للعمل بين الجنسين، وبين الكبير والصغير وذلك تبعا لنوع الحرفة وما تتطلبه من مهارات فكرية وقدرات جسمية.

فهذا النظام الاجتماعي الذي ورثه أهل مدينة تلمسان الحالية يعد امتدادا لجذورهم التاريخية والحرفية منذ عهد الدولة الزيانية وقبلها، وأنّ الآثار الصناعية الباقية اليوم في أزقة هذه المدينة من مختلف الحرف لخير شاهد على هذا الامتداد التاريخي والثقافي الطويل. فقد وصف تجار هذه المدينة وأصحاب الحرف خلال أواخر ق١٦م من طرف الرحالة حسن الوزان الملقب بـ ليون الإفريقي عندما دخل هذه المدينة، بذوي النشاط والعفة والرغد في العيش.[١] كما ارتبط تطور الفلاحة والتجارة بتطور النشاط الحرفي والصناعي المتعدد الألوان والأزياء حتى أن كل حرفة كانت تختص بسوقها الخاص. واشتهرت تلمسان في تلك الحقبة بالمنسوجات. فقد عرف القماش بالتلمساني، وهو صوف خالص مختم وغير مختم. وكان كساء الصوف أو البرنوس من ثماني أواق لرقته. حيث ذكر يحي ابن خلدون من أنواع الملبوسات الثوب، المرعز والقهزي والحرير والملف والذرابع والعمائم والأحاريم[٢].

لم تشتهر تلمسان بالمهارة والتفنن في الصناعات النسيجية فقط، وإنما كان لها صيت في البناء والبستنة وقد أخذ التلمسانيون هذه المهارة من الأندلس، فقد قال عبد الرحمن ابن خلدون" وكانت قصور الملك بتلمسان لا يعبر عن حسنها، اختطّها أبو حمو الأول وابنه أبو تاشفين واستدعيا الصناع والفعلة من الأندلس. فبعث إليهما أبو الوليد ابن الأحمر بمهرة البنائين استجادوا لهم القصور والمنازل والبساتين بما أعيا عن الناس بعدهم أن يأتوا بمثله"،[٣] وهذا دليل على تأثر الفنون المختلفة بما فيها الموسيقى بالأندلس. عندما يذكر يحيى ابن خلدون الصنائع يقول: "فكانت دار الصنعة السعيدة تموج بالفعلة على اختلاف أصنافهم وتباين لغاتهم وأديانهم فمن دراق ورماح ودراع ولجام ووشاء وسراج وخباء ونجار وحداد وصائغ و دباج وغير ذلك[٤]. وما يؤكد التاريخ الحرفي العريق لمدينة تلمسان، هو وجود يهود تلمسان المنتمين إلى عنصرين متباينين، الأول عريق بالمنطقة يعود إلى الفترة الفينيقية، أما الثاني فقد فر من مكاتب التفتيش المسيحية من الأراضي التي استرجعها المسيحيون في شبه الجزيرة الإيبيرية، وإذا كان الصنف الأول ينشط في الحرف البسيطة(دباغة وبرادع) كان الثاني من ذوي الحرف الحرة (أغلبهم أطباء) أو صياغين مبدعين أو تجار مهرة، علمًا أن هذه المدينة جعلت حي اليهود بمركز المدينة عكس ما سارت عليه الحواضر المغربية آنذاك.[٥]

١/١- دور الصناعات التقليدية في التواصل الحضاري:

تمثل الحرف والصناعات التقليدية مخزونًا ثقافيًا أصيلاً تستخدمه المجتمعات كسلاح للمحافظة على خصوصياتها الثقافية والاجتماعية لمواجهة المؤثرات الخارجية، هذا من جهة ومن جهة أخرى فهي تعتبر عاملاً أساسيًا من عوامل الاحتكاك والتثاقف (Acculturation) ما بين الأفراد والمجتمعات، فقد تأثرت الفنون الشعبية الجزائرية عمومًا بالفنون الشرقية (الحضارة الفينيقية)، وكذلك الحضارتين اليونانية والرومانية ومختلف حضارات المتوسط والحضارة العربية الإسلامية.[٦] حيث ظهر هذا التأثر في عدة مجالات حرفية بشكل واضح من خلال فنون الزخارف والتشكيل والرسومات التي تحمل في أعماقها أنماطًا معينة من ثقافات الشعوب وأحوالها العامة. وكان من أهم الأسباب التي أدت إلى تطور الصناعات التقليدية بتلمسان هو احتكاكها بالحرفيين القادمين من بلاد الأندلس بعد طردهم من طرف الأسبان نتيجة لسقوط الدولة الإسلامية هناك. ومما ساهم أيضًا في تطور العلاقات مع الحضارات الأجنبية هو ازدهار المبادلات التجارية التي أدت إلى التفاعل والانصهار بين الفنون والصناعات المختلفة. ظهر هذا التأثر بشكل خاص في مجال النحت على النحاس. وازداد هذا التأثر بفعل وصول الحرفيين الأندلسيين والمختصين في هذا المجال الفارّين من بطش الجيوش الإسبانية، خاصة بعد سقوط غرناطة، آخر معقل للمسلمين في الأندلس، حيث استقر معظم هؤلاء الفنانين بمنطقة تلمسان، وتم احتضانهم من طرف حكامها وأهاليها، ووفروا لهم أسباب العيش والحياة العادية.

وكان هذا هو السبب الرئيس الذي أدى بهم إلى الاستمرار في مزاولتهم واشتغالهم بحرفهم. فقد كان الحرفيين المختصين في صناعة النحاس، من أهم الفنانين الذين أعطوا ميدان الصناعات التقليدية نشاطا وحركية كبيرة، حيث بلغ فن النحت على النحاس ذروته على أيديهم، وهذا بفضل ما جادت به مخيلتهم الواسعة، ومهاراتهم الفنية، وتحتفظ بعض التحف الأثرية الموجودة حاليًا بمتحف وبعض مساجد ومنازل تلمسان، بذلك الطابع المميز والنمط التلمساني الأندلسي، كأبواب مساجد تلمسان وثريا الجامع الكبير وغيرها من التحف العديدة والتي تظهر من خلال النحت الموجود عليها علامات التأثر واضحة. ونلاحظ أن الفنان التلمساني ظل يقتبس الصور والرسومات والأشكال الزخرفية المستمدة من

الطبيعة الأندلسية الخلابة والفتانة، هذا ما جعل تحفهم تمتاز برسم الأزهار والورود والأشجار، وكل ما امتازت به طبيعة الأندلس الساحرة، والتي مناخها يقارب مناخ منطقة تلمسان.[٧]

٢/١- خصوصيات مدينة تلمسان:

تُعدّ هذه المدينة فضاء حضاريًا له خصوصيات تميزه عن الفضاءات الأخرى، وذلك من حيث طبيعة الأنشطة الاقتصادية والممارسات الثقافية والروابط الاجتماعية. حيث اشتهر سكانها بحسن المعاملة والأمانة في التجارة والتبادل، هذه إحدى العوامل التي شجعتهم على ممارسة الحرفة وتطوير إنتاجها، كما أن ما يميز هذا الفضاء هو أن جل الأنشطة الحرفية متمركزة في شوارع وأحياء عريقة، حيث تميز هذه الظاهرة تقريبًا كل المدن القديمة في العالم العربي بخاصة، لقد اشتهرت هذه المدينة منذ القدم بتنوع حرفها وحرفييها، فقد كان يمثل مركز المدينة مقام اللياقة والمدنية بحكم تراكم الخبرات الاجتماعية التي استجمعت لدى سكان النواة الحضرية عبر التاريخ.[٨] وفي هذا المجال أشار ابن خلدون في مقدمته إلى الرباط بين المدينة والصنائع واعتبر ذلك علامة من علامات التحضر، حيث يرى أن الصنائع تعتبر من الكماليات، وتأتي بعدما تتمدن المدينة ويستوفي العمران الحضري الضروري من المعاش، فيقول: "فإذا تمدنت المدينة وتزايدت فيها الأعمال ووفت بالضروري وزادت عليه صرف الزائد حينئذ إلى الكماليات من المعاش.[٩]

٣/١- موقع الصناعات التقليدية ضمن التصميم العمراني للمدينة:

تميزت مدينة تلمسان بتصميم عمراني استراتيجي قسمها إلى ثلاث مراكز أو دوائر كبرى هي:[١٠]

(٣/١) ١- الحي المركزي: يتألف من الهيئات والمقرات الأساسية للمدينة كالمسجد الكبير شمالا، والمشور جنوبا، والمدرسة التاشفينية، ومقر القضاء شرقًا، ومسجد أبي الحسن والمدرسة اليعقوبية غربًا. وكانت هذه العمائر تحيط أول الأمر بساحة القوافل (التي تحولت في أواسط القرن الخامس إلى حي اليهود)، ويعتبر هذا الحي مركز القرارات السياسية والفقهية والثقافية والاقتصادية.

(٣/١) ٢- حيّ النّشاطات التّجارية والحرفيّة:

لقد صمّم الحي التجاري الحرفي بمدينة تلمسان على أساس نسيج متشعب الدروب، شوارعها ضيقة توجد بها دكاكين لعرض البضائع وحوانيت للإنتاج الحرفي، وما يلفت الانتباه أن جلّ البنايات بها طابق علوي تحتله حوانيت مخصصة لبعض الحرف التي لا يرغب أصحابها في إفشاء أسرار مهنهم[*]. كان الحي الحرفي التلمساني تتوسطه بعض الساحات الضيقة مخصصة للباحثين عن العمل والحمالين ويسمى **الموقف**. وهناك أيضا سوق الغزل، كانت تلتقي فيه النساء لبيع الأصواف المهيأة للنسيج والخيوط، وبعض منتجاتهم من الزرابي[١١].

(٣/١) ٣- الحي السكني: يمثل كل ما يحيط بالمدينة وكأنه يشكل الدائرة الكبرى وبداخلها دائرة ثانية مخصصة للنشاطات الحرفية المسموح بها داخل المدينة، وهي بدورها تحيط بحي القرارات. تربط هذا الحي الأخير بالحيين السابقين (المركزي وحي النشاطات) ساحات عمومية مثل السويقة، ساحة المدرس وسوق الفحم، والشكل التالي يوضح ذلك:

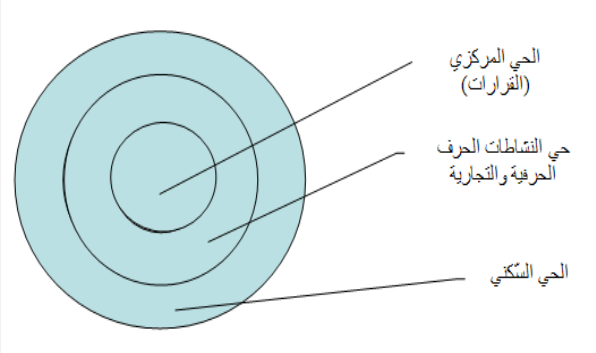

شكل رقم (١) التصميم العمراني لمدينة تلمسان

لقد قسمت المدينة إلى ثلاث أحياء رئيسية من المركز إلى السور المحيط بها، وقد كانت هناك بعض الصناعات الحرفية المزعجة برائحتها وبغبارها وبحجمها وبضجيجها. هذه الصناعات فصلت عن المدينة بسور لإبعاد أضرارها عن السكان. وهذه إحدى الوظائف التي كان يؤديها السور في تلمسان إلى جانب وظيفة الحماية من الهجمات من الأعداء، وفصل المدينة عن الأحواز، ومنع الزوابع والرياح العاصفية من أجل تلطيف المناخ، ومن أهم الحرف التي أبعدت عن التجمعات السكانية:

- الدباغة (الروائح الكريهة).
- مواد البناء (الخشب، القصب، والجير) في الجهة الشرقية.
- أفران القرميديين والفخارين وراء السور الشمالي.
- النحاسين داخل أسوار الجهة الجنوبية (باب الحديد).
- أفران الجير بالمنطقة الجبلية قرب مقالع عين الحوت وسيدي الطاهر.[١٢]

لكن الباحث الذي يتعمق في دراسة النشاط الحرفي اليوم بهذه المدينة يلاحظ التغير الذي بدأ يطرأ على التصميم الأصلي، وهذا بسبب اختناق مركز المدينة وتوسيع آفاق مختلف النشاطات. حيث أقيمت محلات تجارية جديدة وورشات صناعية مختلفة على أطراف المدينة، وفي الأحياء الفاخرة، وهي عبارة عن امتداد ملحوظ للحرف التقليدية القديمة والشكل التالي يوضح ذلك:

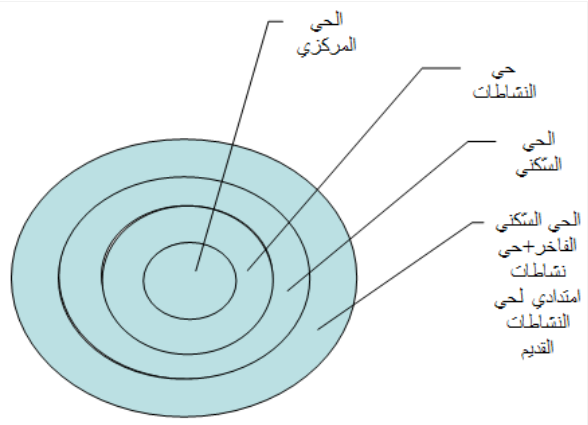

٤/١- ترتيب الحرفة في دائرة التراث الشعبي:

تعبر الصناعات التقليدية عن ثقافة مادية لشعب من الشعوب، حيث أن فهم الثقافة الحالية والبناء الاجتماعي القائم يتطلب فهم التاريخ وعلم الفلكلور، وتُعَدّ الحرفة من التراث الشعبي، وهي ثقافة تنتقل اجتماعيًا من الجد إلى الأب إلى الابن، أو من الجار إلى جاره مستبعدًا المعرفة المكتسبة عقليًا وبأسلوب رسمي ومنظم. ولهذا نجد علم الفلكلور يهتم بهذا الجانب ويعطي له أهمية كبيرة،[١٣] بحيث يركز علم الفلكلور الحديث على دراسة التراث الشعبي ويقسمه إلى عدة فروع معرفية كما يلي:[١٤]

العادات الشعبية، المعتقدات الشعبية، المعارف الشعبية، الأدب الشعبي، الفنون الشعبية والثقافة المادية. يقول محمد الجوهري[*] "لقد أتيحت لنا الفرصة لاقتراح تقسيم للتراث الشعبي" وهو:

المعتقدات والمعارف الشعبية، العادات والتقاليد الشعبية، الأدب الشعبي وفنون المحاكاة، الفنون الشعبية والثقافة المادية. وتعتبر الزخرفة العنصر الأساسي الذي أدى إلى ربط الفنون الشعبية بالثقافة المادية، فنادرًا ما نجد منتجات حرفية خالية من الفن وهذا هو الطابع المميز للحرف التقليدية، كما أن هذه الفنون التي تحمل أشكالاً ورسومات وزخارف تحمل نوع من العفوية والتلقائية وخلفية ثقافية شعبية لأفراد المجتمع تترجم تقاليدهم وعاداتهم وأفكارهم أو نمط حياتهم.[١٥]

٥/١- الصناعات التقليدية جسر بين مدينة تلمسان وضواحيها:

اشتهرت ضواحي تلمسان بالتخصص في عدة صناعات تقليدية، وقد ساعدها في ذلك طابعها الجغرافي ونمطها الفلاحي والرعوي وعادات وتقاليد سكانها الذين تأثروا بالحضارات التي مرت بهم، وهنا نخص بالذكر منطقتي ندرومة (طرارة) وقبائل بني سنوس هاتين المنطقتين تعتبرات الحضيرتان التاريخيتان في الحرف والصناعات التقليدية.

(٥/١) ١- ندرومة: عرفت بمدينة الفخارين والنساجين[١٦] هكذا وصفها الباحث الفرنسي ج.ج. جيلبار، لأن المدينة اشتهرت لفترة طويلة بهاتين الحرفتين، فكانت رائدة فيهما، وهما على رأس النشاطات الأخرى. فقد احتلت صناعة النسيج المرتبة الأولى من حيث النشاطات الحرفية والتقليدية وعدد اليد العاملة التي تحتضنها، حيث وصل عدد النساجين إلى (٧٥) نساج في ورشات الدراز بصفة رؤساء المهن (المعلمين)، بالإضافة إلى (٣٠٠) عامل، وهذا حسب إحصائيات ١٨٦٧. وتأتي في المرتبة الثانية صناعة الفخار، فقد كتب (E.Janier) عنها يقول "أن هذه الصناعة كان يتحكم فيها البربر غير المتعلمين لسنين طويلة لذا عرفت تطورًا بطيئًا في المدينة"،[١٧] وبهذا بقيت صناعة الفخار أقل تقدمًا من النسيج، بالإضافة إلى ذلك تمركزت في الأرياف، ولكن بمرور الزمن انتقلت إلى المدينة.

ومعظم سكان المدينة كانوا يجمعون ما بين الصناعات التقليدية والتجارة والفلاحة، حيث أقاموا علاقات تجارية مع المنطقة المجاورة من المغرب كمدينتي فاس وطانجة. فقد عانى سكان هذه المنطقة من العيش الزهيد في فترة الاحتلال الفرنسي، وهذا ما جعلهم يتحدون هذه الظروف ويعتمدون على الصناعات التقليدية والحرف لتلبية حاجياتهم من العيش، حيث كانت صناعة النسيج والحايك والجلد والفخار من أهم مصادر الرزق لديهم[١٨]. وقد لعبت عدة عوامل ثقافية وطبيعية في تمركز الحرف والصناعات التقليدية بنوعيها الريفي والحضري بهذه المنطقة إلى ما قبل القرن السادس عشر الميلادي، ومن أهمها وفرة الثروات الرعوية والفلاحية مثل الصوف والجلد والدوم والخشب والحبوب بالإضافة إلى الثروات الطبيعية المتمثلة في الجبس والطين والحجر، ويتجلى ذلك في الصناعات الجلدية والنجارة والفخار والنسيج بشكل خاص، حيث برزت هذه المدينة بامتياز في ميدان الصناعات التقليدية من خلال الدرازين والفخارين وأيضًا الإسكافيين واستقطبت هذه المجالات العدد الكبير من المهنيين والحرفيين الذين سجلوا تاريخهم الحرفي بها.[١٩]

(٥/١) ٢- بني سنوس: تُعَدّ هذه المنطقة حضارية تتميز بتراثها الشعبي المادي وغير المادي. اشتهرت بصناعاتها التقليدية المتمثلة في الزربية والحصير المصنوع من الحلفاء، وقد ساعدها على ذلك طابعها الرعوي وبيئتها الشبه صحراوية المنتجة لمادتي الدوم والحلفاء إلى جانب الصوف.اشتهرت هذه المنطقة بصناعة الحصير، وتميزت بالتعاون بين الرجل والمرأة على هذه الحرفة، وفي الوقت نفسه كان تقسيم العمل بينهما، فالرجل يلجأ إلى الحقول السهبية لقلع الحلفاء والليف المستخرج من نبات الدوم وجمعها في رزم قبل معالجتها بالمادة والصباغة، ويقدمها بعد ذلك إلى المرأة التي تقوم بعملية النسيج بواسطة المنول البسيط أو ما يسمى بالمنسج. فقد كانت حصيرة بني سنوس تلقى إعجاب الزبائن من المواطنين والتجار، وكانت عبارة عن مصدر رزق لسكان المنطقة. وبالإضافة إلى الحصيرة استعملت الحلفاء في صناعة المضفرات الأخرى كالطباق والبرادع، ولم ينحصر نشاط سكان المنطقة في هذه المنتجات، بل استغلوا الصوف الخالص في صناعة العديد من الأزياء التقليدية كالبرنوس والعباءة والأواني المنزلية الخشبية.[٢٠] لقد ساعدت العوامل الطبيعية والبيئية هذه المنطقة على الاشتهار بصناعة الزربية والمضفرات الحلفية، ومن

أهمها مادة الحلفاء المتوفرة بسهوب هذه المنطقة إلى جانب صوف الماشية، وأيضا تعلق اليد العاملة النسوية بهذه الصنائع التي عملت على دمجها في نمط حياتها، فأصبحت جزءا لا يتجزأ من عاداتها وتقاليدها اليومية.

ثانيًا: المقاربة الأنثروبولوجية

يبرز البعد الأنثروبولوجي للحرفة في اختلاف فنون الإنتاج وأدواته من عائلة إلى أخرى ومن منطقة إلى أخرى كاختلاف زربية مدينة تلمسان عن زربية منطقة بني سنوس، حيث يظهر هذا الاختلاف في طبيعة الأشكال والرسومات والزخرفة التي تزين الزربية، مما يجعلها تحمل في مضامينها أنماطًا معينة للحياة بين الثقافتين المحليتين. فالأشكال التي تتضمنها زربية بني سنوس ترمز إلى عادات وتقاليد الزواج والطلاق وأشكال أخرى من العلاقات الاجتماعية السائدة في الأسرة الممتدة التي تتألف من أسر نووية تقطن داخل الدار الكبيرة التي تمثل وحدة إنتاج وتؤدي وظيفة الحماية أيضًا[٢١]. وهذا الاختلاف الذي نجده في مختلف الفنون التقليدية بين المناطق مرده إلى عوامل بيئية واجتماعية وثقافية وتاريخية...إلخ. وتتحدد الأشكال والزخارف والألوان حسب الثقافة التي ينتمي إليها الحرفي وتأثيرها فيه، ولهذا نجد أشكالاً متعددة كالزهور والأشجار والمساجد والمآذن والسيوف وألبسة النساء والكواكب والنجوم ومظاهر الاحتفالات كالزواج والختان، ونجد كذلك نماذج من الأوشام، ورسومات للكف والعين وأنواع الطيور كالطاووس، والمثلثات والمربعات والدوائر، هذا بالإضافة إلى الألوان المختلفة، وكل هذا يحمل في مضامينه معاني مختلفة وأنماط وحضارات لدى الشعوب المختلفة.[٢٢]

أما ما بين ندرومة وتلمسان فقد تجلى الاختلاف في المنتجات في طبيعة التأثير الذي تركته الحضارات المارة بهما، حيث نجد ندرومة غلب عليها تأثير الثقافة البربرية وخاصةً في عادات سكان الريف الذين اختصوا في الفخار، بينما صناعة الدراز والنسيج الندرومي لم يخف هو الآخر تأثره بعادات وتقاليد البربر. خلافًا لذلك يبرز الطابع الأندلسي والتركي على الصناعات التقليدية في تلمسان المدينة. لقد استطاعت الحرفة في مدينة تلمسان أن تبني نسيجًا اجتماعيًا واقتصاديًا وثقافيًا تجلى بوضوح في مختلف التبادلات المادية والمعنوية، من خلال العلاقات الزواجية، وإظهار التفوق العائلي حسب نوع الحرفة ودرجة إتقانها لنيل المكانة الاجتماعية، والتموقع داخل المدينة في أحياء مميزة، وتحديد أماكن اللقاءات في المناسبات وغير المناسبات، وقد انتقل ذلك حتى إلى الحياة السياسية.

١/٢- التوزيع الجغرافي والبشري للحرف في المدينة:

لقد عرفت شوارع مدينة تلمسان أيام انتعاش الصناعة الحرفية بأسماء الحرفيين، ولا زال لحد اليوم بعض الممرات والأزقة التي كانت تحتضن هؤلاء الحرفيين شاهدة على ذلك، وبقيت صورها في أذهان سكانها خاصة من كبار السن الذين احتفظوا بتلك الصور ويعرفون حتى أماكن جلوس الحرفيين ومواقعهم معرفة دقيقة. فقد كان وسط المدينة مقسمًا إلى شوارع حرفية أهمها: درب الصباغين، شارع الصياغين، درب الحجامين، شارع الحدادين، دار الدباغ والدرازين والبلاغجية والخرازين.[٢٣] لقد كان للنشاط الحرفي دور كبير في تحديد جغرافية بعض أحياء ودروب بعض المدن الجزائرية العتيقة مثل مدينة تلمسان، ومدينة بجاية، ومدينة قسنطينة، حيث لا تزال بعض هذه الأماكن تحمل أسماء الحرف التي كانت تمارس فيها أو كانت مسرحًا لأسواقها تباع فيها المنتجات والمواد الأولية وأدوات الإنتاج. ولا تزال هذه الأماكن حية ومحافظة على أسمائها على الرغم من اختفاء النشاطات الحرفية منها، وعلى الرغم من اختفاء الحرفيين، وعلى الرغم من تحول نشاطها التقليدي إلى نشاط آخر، لا تزال دروب هذه المدن تعرف بأسمائها القديمة، مثل:

درب الدباغين: وهو درب كان يجمع عددا من الدكاكين والمحلات الخاصة بدباغة الصوف والجلد.

درب الفخارين: وهو درب كان يحتوي عددا من الدكاكين لصناعة وبيع الأواني الفخارية.

سوق الغزل: وهو مكان كان يلتقي فيه الغزالون والنساجون لبيع منتجاتهم أو لشراء المواد الأولية كالصوف والنسيج، وأيضا أدوات الغزل والنسج. لقد كانت الكثير من الأمكنة من أحياء وحارات وأسواق وأبواب وطرق وجوامع في تلمسان تحمل اسم الحرفة أو الصناعة التي كانت قائمة بها.[٢٤]

ولم تقتصر الحرفة على التقسيم الجغرافي للمدينة فحسب، بل كان لها دور في تقسيم المنطقة إلى إثنيات، حيث ساهمت في التعريف بأصالة وأصول الحالة المدنية لعدد من العائلات التي اشتهرت بممارستها لحرفة من الحرف وتوارثها أبًا عن جد، حيث ظلت متمسكة بها كعنصر أساسي في تحديد انتماءها الحضاري والثقافي والتاريخي والاقتصادي، حتى أضحى لكثير من العائلات في تلمسان ألقاب وأسماء مرتبطة بهذه الحرف[٢٥]. وهي أصلاً صفات عرف بها أجداد وآباء أيام ممارساتهم لهذه الحرف ونبوغهم فيها ولا زالت هذه الأسماء قائمة وثابتة في سجل الحالة المدنية مثل: (عائلة نجار، وعائلة حطاب، وعائلة قهواجي، وعائلة سلعاجي، وعائلة دمرجي، وعائلة دباغ، وعائلة دراز، وعائلة حداد، وعائلة فحام، وعائلة غياط، وعائلة غراس، وعائلة فلاح، وعائلة سقال، وعائلة خراز، وعائلة خياط، وعائلة فخار، وعائلة حلاق، وعائلة براح، وعائلة حجام، وعائلة جلاد، وعائلة حمال، وعائلة برادعي، وعائلة صباغ... إلخ). وخلقت هذه الجغرافية نسيجًا من العلاقات القرابية عن طريق الزواج والمصاهرة، تحددت قاعدتها على أساس الحرفة. وكانت العلاقات الاجتماعية والقرابية والمصاهرات تحدث بين هذه العائلات بناء على المكانة (المرتبة) الاجتماعية والاقتصادية لنوع الحرفة، فالحرفيين أصحاب المكانة العالية يندمجون في العلاقات الاجتماعية من خلال الزواج أو

التشارك الإنتاجي أو التعاون ويكونون طبقة معينة على أساس سوسيو-مهني. مثلاً (صياغ/ نساج)، (قهواجي حداد)، (خياط/ خراز)، وهكذا، وقد استمر هذا النظام الاجتماعي إلى غاية اليوم عندما عرفت العائلات بأسماء الحرفة أو الصنعة التي ارتبطت بها.

إن غريزة التجمع بين هؤلاء الحرفيين برزت كتنظيم ثقافي واجتماعي عفوي تسيره آليات بسيطة، ولكنها استطاعت في الوقت نفسه أن تمهد لمرحلة صناعية كبيرة ومعقدة تعتمد في نظامها المهني على ما أنتجه التنظيم الحرفي البسيط، وهو ما حدث فعلا في مرحلة التصنيع الكبرى التي شهدتها الجزائر بعد الاستقلال مباشرة عندما تكتل مختلف العمال في تنظيمات مهنية ذات طابع سوسيو ثقافي تاريخي أقل ما يقال عنها أن أصولها الأولى هي الحرفة والزراعة. وحتى التنظيمات النقابية التي سبقت التنظيم الصناعي الحديث قامت على مبدأ التنظيم الحرفي، أي تنظيم العمال الذين يمارسون حرفة معينة في نقابة تحمل اسم هذه الحرفة بصرف النظر عن الصناعة التي يشتغلون فيها، وعلى أساس هذا المبدأ أعتبر التنظيم الحرفي أقدم نمط للتنظيم النقابي.[٢٦]

٢/٢- أبعاد الحرفة:

تعتبر الحرفة فن من الفنون الشعبية المادية، وتراث حضاري أصيل ومتجدد في آن واحد، تضمن عبر تاريخ هذه المدينة عدة أبعاد بارزة في حياة الأفراد والعائلات، من أهمها:

(٢/٢) ١- البعد الاجتماعي والاقتصادي:

نشأت الحرفة كتعبير عن تلبية الحاجة الاقتصادية وتحسين الوضع الاجتماعي، وكان هذا الدافع هو الأساس عند أغلب الحرفيين. لأن التاريخ الاجتماعي إذا فهمنا منه تاريخ الجماعات الاجتماعية وعلاقاتها فهو تابع من حيث الأساس للضرورات الأولية للنشاط الاقتصادي.[٢٧] فقد شجعت عوامل البؤس والفقر والسياسة الاستعمارية الإقصائية سكان مدينة تلمسان آنذاك على امتهان هذه الحرف للتخلص من تلك الوضعية الاجتماعية المزرية، وكانت الميزيرية تقطع المسمار كما عبّر أحد الحرفيين المسنين في إحدى التحقيقات، حيث كان الفرد يبحث عن العمل مهما كان وأحسن تعبير عن ذلك تلك العبارات المعبرة التي وجدت في تلك الفترة "درّاز ولا خراز ولا حرفة قهواجي"،[٢٨] وبالموازاة مع تلك الوضعية الاجتماعية كانت فرنسا تمارس سياسة الإقصاء خاصةً بعد الأزمة الاقتصادية العالمية (١٩٢٩)، فكانت تبعث بتجهيزات صناعية إلى الجزائر، ولم يكن يستفيد منها إلاّ المعمرين أنفسهم، بينما يحرم معظم السكان الجزائريين من استخدام هذه الأدوات الصناعية. وبسبب هذا التهميش اضطر سكان المدينة إلى ابتكار عدة حرف ومهن تقليدية متنوعة لتلبية حاجاتهم فأقاموا تلقائيًا نظامًا داخليًا بين أصحاب كل حرفة تميز بخاصيتين أساسيتين:

أ-**خاصية التكتل:** انقسام الحرفيين حسب عائلات حرفية معينة وتجمعهم في حي واحد بالقرب من بعضهم البعض، هو نظام أملته عليهم عدة ظروف، فمن الناحية الثقافية شعورهم بالانتماء إلى نظام موحد من الطقوس والعادات والتقاليد والرموز جعلهم يكونون انتماء ثقافي محلي. ومن الناحية الاجتماعية أقاموا بيئة من التضامن العائلي والتآزر فيما بينهم، حيث انتقل هذا النظام إلى عائلاتهم الخاصة، وكان من نتائجه قيام مصاهرات وقرابات اجتماعية تحمل اسم الحرفة. ومن الجانب الاقتصادي ساد بينهم التنافس في الإنتاج والإبداع وإظهار أجمل الفنون الحرفية. ومن الناحية السياسية حاولوا إظهار عنصر التحدي للتغلب على السياسة العنصرية التي فرضها عليهم الاستعمار آنذاك.

ب-**خاصية التحدي:** تميز التنظيم الحرفي بنظام من العمل الجماعي، حيث كان رب المصنع يعمل بيده وسط عماله في جو يسوده الاحترام المتبادل والفرح والمرح. ولم تكن السلطة المهنية بارزة، فقد سادت قيم الصدق والإخلاص والأخوة، وجعلت منها أهم سمات المعاملة ما بين العمال وصاحب العمل والزبائن. وقد أدى انتشار هذه القيم في الوسط الحرفي بين التجار إلى ازدهار الحرفة حتى أصبحت هذه القيم عبارة عن الرابط الاجتماعي الذي يحمي السكان من الهشاشة الاقتصادية التي قد تمسهم[٢٩]. فقد قامت بعض العائلات التلمسانية بتنمية ثروتها الاقتصادية بفضل روح المبادرة في صناعة الزرابي، أو الألبسة التقليدية، فكانت تبدأ بمنسج واحد وثلاث عاملات لصناعة الزربية ولكن شيئا فشيئا استطاعت أن تحقق عددا من المناسج والعاملات حتى وصلت إلى قيام ورشات صغيرة، أو معامل لتلبية حاجيات اقتصادية لمجموعة من العائلات والأفراد. وغالبًا ما كان الرأسمال يتراكم عند الحرفي بفضل الجهود التي يشترك فيها كل أفراد العائلة من الزوجة والبنت والابن وحتى الأصهار.

(٢/٢) ٢- البعد الطبقي والثقافي: لم تساهم الحرفة في قيام نظام اجتماعي وثقافي فحسب، بل أنشأت نظاما من التدرج الاجتماعي المهني، بمعنى إحداث طبقات ومستويات معنية. ولا زال لحد اليوم بعض الأفراد من هذه الطبقات في مدينة تلمسان ينادوهم ليس بأسمائهم الطبيعية، بل بأسمائهم الحرفية، نذكر أهمها:

- المعلم (مالك وسائل الإنتاج الحرفي).
- الصانع (الصنايعي).
- الخدام(العامل) .

إنّ وجود هذه الطبقات يدل على الخلفية الاستعمارية والرأسمالية والاستغلالية التي تكونت إبان الاستعمار الفرنسي مع تشكل الرأسمالية الكولونيالية في الجزائر التي أدت إلى خلق الملكية الخاصة للتحرر من العلاقات الاجتماعية التي نسجتها القبيلة[٣٠]. فقد أصبحت الحرفة خاصة في صناعة الزرابي مهدا للاستغلال الطبقي مثل الاستغلال الرأسمالي الكبير. ففي إحدى التحقيقات الماضية التي تحدثت عن هموم حرفيات الزربية في مدينة تلمسان، ورد "أن صناعة الزربية في تلمسان تنبت من تحت الأرض تخرج مزركشة من الأقبية المظلمة والقليلة التهوية* تصنع

بأيادي غضة في غالبيتها لم تبلغ ١٨سنة، هذه الأيادي صغيرة في قيمتها ولكنها ذات قيمة فريدة في مستوى الإنتاج"[٣١]. وتحت ظروف قاسية للعمل استغلت فتيات ونساء من طرف مالكي وسائل الإنتاج وتكونت الطبقة الرأسمالية المحلية التي قامت بتطوير الإنتاج وتوسيعه بشتى الطرق لزيادة أرباحهم بعيدًا عن الذوق الجمالي لهذا الفن الذي أعطى طابعا ثقافيًا للمدينة.

- المعلم: (مالك وسائل الإنتاج الحرفي)

كان أغلب الملاك من أثرياء المدينة ومن الحضر، وقد أشرنا سابقًا إلى أن أغلب التجار المهرة كانوا من يهود تلمسان، احتكروا صناعة الزرابي التي كانت تتمركز في أكثر من مئة عائلة وبسبب الكساد الذي أصاب هذه الصناعة في الأسواق العالمية خاصةً أسواق ألمانيا نتيجة لارتفاع أثمان الصوف الخام، وتكفل الدولة بالاستيراد للمواد الخام وتوزيعها على الخواص تضاعل الربح، مما دفع أصحاب هذه الحرفة بالتحايل على القانون، وتحويلها إلى صناعة عائلية تقام في البيوت. وتعكس الألقاب والأسماء التي ذكرناها سابقا جزءًا من هذه الطبقة المالكة. استغل التلمسانيون وجود نقابة الحرفيين التي أسستها فرنسا ١٩٣٩"هي شركة نقابة أندجانية لاحتياط الصناعة التقليدية، ضمت أصحاب الحرف الآتية: الدرازون، الاسكافيون، البلاغجية، الدباغون، السراجون"[٣٢]. فاستفادوا من وسائل الإنتاج المتطور مثل المرمى[*] من نوع جاكار فقلدوها وصنعوا مثلها نسخًا عديدة، وعوضوا بذلك المرمى التقليدية فتضاعف إنتاجهم بعشرات المرات، مما سمح لهم بجمع أموال طائلة حتى صاروا أغنياء وملاك كبار للحرفة.

-الصانع: (المتعلم)

كان ينادى أحيان باسم "صانعي" من طرف المالك. فهو يمثل الطبقة الوسطى بين المعلم والخدام، حيث يتولى أو تتولى إذا كانت امرأة مهمة استخدام نساء وفتيات كعاملات، وغالبا ما كان يتم اختيارهن تحت شروط معينة بغرض زيادة أرباح الحرفة مثل: صغر السن وقلة المطالب. وكثيرا ما كانت تشغل الفتيات في عملية إتقان الصنعة لأكثر من سنة ولا يدفع لها إلا أجر قيمة الحمام كما كان يقال، أي ما يعادل خمسة ٥ إلى عشر ١٠ دنانير جزائرية في الأسبوع. وكانت مدّة التعلم قد تطول حتى شهر أو أكثر حسب قدرة المتعلمة على اكتساب تقنيات الحرفة.

- الخدام: (العامل)

كانت هذه الطبقة تتشكل من بعض الفئات الاجتماعية من كلا الجنسين، فكان يتفوق العنصر النسوي في حرفة النسيج خلافًا للحرف الأخرى، مثل الدباغة والصباغة والحدادة التي تفوق فيها الذكور بحكم طبيعة هذه الأعمال.فعلى سبيل المثال كانت صناعة الزربية تضم فئة النساء من طبقات مختلفة:

- بنات الأسر الفقيرة من الفتيات غير المتعلمات أو المنقطعات عن الدراسة.
- نساء عاملات يتكفلن بتربية وإعالة أسرهن.
- بنات غير متزوجات يعملن من أجل تحضير جهاز الزواج فقط. وغالبا ما ينقطعن عن العمل قبل موعد الزواج.

ويساهم البعد في أشكال التعبير الشعبي التي تجسدت في الأمثال والحكم والأناشيد التي كانت تردد أثناء النشاط. فقد كانت بعض الحرف تتطلب يدا عاملة كثيرة، مثلا طيّ السدى "Moulage" عند الدراز الذي كان يفرض ستة عمال على الأقل، و خلال الأسبوع كان أصحاب الحرف المختلفة يتعاونون على إنجاز أعمال تتراكم عند بعض الحرفيين. وتتم هذه العملية في جميع الحرف كلما دعت الظروف لهذا التعاون، وهو ما عرف "بالتويزة"، وهي أهم سمة أنتجتها التجمعات الحرفية والزراعية المختلفة في الجزائر التي لازالت سارية إلى اليوم خاصة في التجمعات الريفية. حيث أعطت نتائجها في مجال التعاون والتضامن، وفي تبادل المعارف والتمسك بالعمل الجماعي. كما نتج عن هذا التبادل للعمل بين الحرفيين إنتاج ثقافي، أو فولكلور تضمن الأمثال والحكم وأشكال التعبير الشعبي التي تناولت عدة موضوعات شكلت اهتمام الحرفيين في هذه المرحلة كجمع المال، وطرق العمل والإنتاج والعبادة والزواج. حيث يعتبر هذا الفولكلور أقرب ما يستنجد به الفرد لإثبات صحة الحديث لأنه يتناول ضروب الحياة المختلفة بما يتضمن من حكم بالغة وتعبيرات صادقة نابعة من تجارب الأقدمين في تعاملهم مع أنفسهم ومع الغير.[٣٣]

ثالثًا: المقاربة الاقتصادية

تتجلى هذه المقاربة في البعد الاقتصادي الذي يفسر الصناعات التقليدية كعامل من العوامل الاقتصادية التي تساهم في خلق قيمة مضافة للمجتمع عن طريق إنشاء مؤسسات صغيرة ومتوسطة، تقوم باستقطاب وإدماج شرائح مختلفة من أفراد المجتمع في العديد من الوظائف والنشاطات من أجل تفعيل الحياة الاقتصادية على المستوى المحلي والوطني. ولعل الإصلاحات التي حظي بها قطاع الصناعات التقليدية من طرف الدولة الجزائرية منذ سنة ٢٠٠٣ وربطه بالتنمية الاقتصادية والسياحية للبلاد يشكل في حد ذاته جوهر هذه المقاربة. حيث استطاع أن يحقق سنة ٢٠٠٩ أكثر من (٣٤٠) ألف منصب شغل و(١١٧) مليار دج في الناتج الداخلي الخام، وهذا على الرغم من النقائص المسجلة والصعوبات التي يعاني منها هذا القطاع المتمثلة في المنافسة الأجنبية وغلاء المواد الأولية ومشكل الضرائب وانقراض الحرفيين المهرة ...إلخ. وعندما تجسدت فعالية الإصلاح على أرض الواقع، سجل قطاع الصناعات التقليدية تحقيق عدة مكتسبات أهمها:

-إنشاء مراكز تثمين المهارات والتكوين.

-بناء هياكل قاعدية مثل غرف الحرف والصناعات التقليدية.

-الدعم المالي للقطاع بواسطة إجراءات تحفيزية للحرفيين.

-عقد اتفاقيات شراكة مع مؤسسات أجنبية من ألمانيا واسبانيا للاستفادة من الخبرات والتجارب الناجحة.

-إنشاء الجلسات الوطنية غايتها جمع المعلومات من ممثلي الحرفيين ومسيري الهياكل.

١/٣- واقع الصناعات التقليدية ودورها في التنمية في تلمسان:

من خلال اطلاعنا على الإحصائيات التي توفرت لدينا والبيانات المتاحة لدى وزارة المؤسسات الصغيرة والمتوسطة والصناعات التقليدية، تبين أن الحرفة بولاية تلمسان توفر أكثر من ١٢٠٠٠ منصب عمل يتوزع من خلالها الحرفيين على ثلاثة مجالات أساسية:[٣٤]

الصناعة التقليدية الفنية	الصناعة التقليدية لإنتاج المواد	الصناعة التقليدية للخدمات
%١٨	%٣١	%٥١

وإضافة إلى الدور الفعال الذي تؤديه مختلف الصناعات الحرفية في تنشيط الحياة الاقتصادية، تساهم الصناعات التقليدية الفنية في تطوير السياحة نظرا للخصوصيات والنشاطات التي يتميز بها هذا الميدان والمتمثلة في الحفاظ على الطابع التقليدي والأصيل للمنتوج الذي غالبًا ما يمزج بالأشكال والألوان الجذابة التي تغري السائح. حيث يتضمن هذا الميدان ما يلي:

-العمل على الطين والجبس والحجر والزجاج.

-العمل على المعادن بما فيها المعادن النفيسة.

-العمل على الخشب ومشتقاته.

-العمل على الصوف والمواد المماثلة.

-العمل على القماش أو النسيج.

-العمل على الجلود.

-العمل على الحلفاء.

حيث أن جل منتجات هذا الفرع هي منتجات سياحية من الدرجة الأولى، تبرز فيها المهارة والإبداع والأذواق والأشكال التي ترمز إلى المرجعيات الثقافية التي يحبذها السائح في المنتوج الحرفي. حيث نجد الفخار، النحاس، الحلي، المنقوشات الخشبية، المنتجات الصوفية، الأقمشة، الزرابي، الحصائر، والمنتجات الجلدية المختلفة. وجل هذه المنتوجات ذات قيمة فنية عالية تحتاج إلى الإتقان والمهارة التي بدأت تتراجع مع انقراض الحرفيين القدماء، ولهذا تمثل الصناعات الفنية النسبة الأقل من حيث توفير فرص التشغيل وكلما زادت درجة الإتقان والمهارة في إنتاجها صعب تنميطها وأيضا تنميط سعر منتوجها.

لقد اكتشفنا أن بعض الحرف التقليدية التي كانت رائجة في مراحل سابقة قد اندثرت اليوم بسبب عدة عوامل نذكرها لاحقا. فعلى سبيل المثال فقد تراجعت صناعة الحايك وغيرها من الألبسة التقليدية إلى أكثر من (٩٥%)، والسبب الرئيسي حسب ما تبين لنا يرجع إلى ندرة المواد الأولية، والمنافسة من الصناعة الحديثة. بينما نشأت بعض الحرف الأخرى، ومقابل ذلك عرفت بعض الحرف نوع من التجديد تميز بالمزج بين التقليدي والعصري. على سبيل المثال لا الحصر نذكر بعضها:

١/١- الحرف القديمة: الصباغة، الصياغة، وفيها المجوهرات من الذهب والفضة والنحاس، الحجامة، الحدادة، الدرازة، البلاغة(الأحذية الجلدية)، الخرازة، البستنة، السراجة(صناعة السروج)، السفاجة (الفطائر)، والخياطة. حيث أن أغلب هذه الحرف كانت تمثل الفضاء الحرفي التلمساني قبل الاستقلال وإلى غاية المخطط الرباعي الثاني بعد الاستقلال الذي جسد سياسة التصنيع الكبرى، التي استقطبت الآلاف من البطالين والفلاحين والحرفيين من الأرياف والمدن.

٢/١- الحرف المتجددة: الخياطة التقليدية، الصياغة(الذهب والفضة)، الحلاقة، النسيج، الحدادة، صناعة الجلود، تكرير زيت الزيتون، الفخار، صناعة الخبز التقليدي...إلخ. ولكن بالرغم من أنها لازالت موجودة لدى البعض القليل سواء في المدينة أو في الريف، فإن المؤشرات تدل على أن بعضها يتجه نحو الاختفاء التدريجي.

٣/١- الحرف المندثرة: الصباغة، الصياغة(النحاس)، الحجامة، السراجة، الدرازة، البلاغة، السفاجة، الحايك، الحصائر، البرميل الخشبي...إلخ. حيث أصبحت هذه الحرف تتلاشى تدريجيا، وأن وجدت في مكان ما فهي نادرة جدًا.

٤/١- الحرف الحديثة: الطباعة على الحرير، التفنن في النقش على الخشب، صناعة الحلويات، صناعة الجبن، حلاقة النساء، النقش على الزجاج، الصيانة والتركيب والتصليح، والزخرفة على الجبس، التزيين والتجميل والنظافة...إلخ.

وتشير الإحصائيات الحديثة عن غرفة الصناعات التقليدية والحرف لولاية تلمسان[٣٥]، واستنادًا إلى المرسوم التنفيذي رقم٩٧-١٤٠ المؤرخ في٣٠ أفريل١٩٩٧، المعدل والمتمم بالمرسوم التنفيذي رقم ٠٧- ٣٣٨ المؤرخ في ٣١ أكتوبر ٢٠٠٧ الذي يحدد قائمة نشاطات الصناعية التقليدية والحرف على المستوى الوطني أن النشاطات التي أحصتها هذه الولاية على إقليمها تبين أن هذا الفضاء الحرفي يضم عددًا كبيرًا من النشاطات حسب الميادين الثلاثة الكبرى المحددة بالمرسوم أعلاه، وهي:الفنية والإنتاجية والخدماتية، حيث من بين (٣٥) نشاطًا ضمن مختلف القطاعات كانت تضم (١٦٢) حرفيًا معتمدًا سنة ١٩٩٠، وارتفع عدد المعتمدين سنة ٢٠٠٠ إلى (٣٦٤) حرفيًا، ثم انخفض سنة ٢٠٠٨ إلى ٢٩٦ حرفي مسجل (انظر الجدول رقم٠١).

السنوات	عدد الحرفيين
١٩٩٠	١٦٢
٢٠٠٠	٣٦٤
٢٠٠٨	٢٩٦

جدول(٠١) يوضح تطور الحرف المعتمدة من (١٩٩٠-٢٠٠٨)

كنا نتوقع زيادة الحرفيين منذ سنة٢٠٠٧ إلى اليوم، لكن التعديلات التي جاء بها المرسوم المذكور أعلاه، حالت دون تحقيق ذلك، حيث أن طبيعة النشاطات التي حددها هذا المرسوم رافقتها أنواع من الضرائب، وصعوبات في التسجيل على مستوى الغرفة، كما أن هناك بعض النشاطات أصبحت تتطلب مستوى معينًا من التكوين، إلى جانب غلاء أسعار المحلات في هذه الفترة والشروط القانونية والمالية التي استحدثت على عاتق المؤجرين والمستأجرين، على سبيل المثال:

-حدد مبلغ التكوين على مستوى الغرفة خلال مدة ثلاثة أيام فقط بـ٢٥٠٠.٠٠دج.

-مبلغ التسجيل بالنسبة لحاملي شهادات الكفاءة المهنية قدر بـ١٩٠٠.٠٠دج.

-مبلغ التسجيل لأصحاب شهادة العمل أو شهادة تقييم المؤهلات المهنية قدر بـ٢٦٠٠.٠٠دج.

هذا بالإضافة إلى تكاليف أخرى خاصة بالانخراط (٥٠٠.٠٠دج) والاشتراك(٣٠٠.٠٠دج). ولهذه الأسباب قد تم تسجيل ارتفاع في نسبة الشطب من السجل الحرفي منذ سنة ٢٠٠٧، التي احصت (٧٦) حرفي إلى (٨٦) حرفي سنة ٢٠٠٨ أي بمعدل (١٣%).

من بين عينة من الحرفيين المسجلين على مستوى غرفة الصناعات التقليدية في تلمسان، تساهم اليد الحرفية النسوية بـ (٩٤) امرأة مقابل (٤٣٢٩ رجل. أي بمعدل (١٧.٨٨%) مقابل (٨٢.١٢%) على التوالي (انظر الجدول رقم٠٢).

توزيع الحرفيين	التكرار	النسبة%
الذكور	٤٣٢	٨٢.١٢
الإناث	٩٤	١٧.٨٨
المجموع	٥٢٦	١٠٠

جدول (٠٢) يوضح مساهمة الذكور والإناث في النشاط الحرفي في القطاعات الثلاثة (الفنية، الإنتاجية، الخدمات من ١٩٩٠ إلى٢٠٠٠)

أما عن الوضع العائلي والاجتماعي لهؤلاء الحرفيين والحرفيات والمقدر عددهم الإجمالي بـ (٥٢٦) فهو يعكس حقيقة موضوعية، وهي أن فئة المتزوجين تساهم بنسبة عالية قدرت بـ (٦٥.٤%) وعددهم (٣٤٤) ما بين الحرفيين والحرفيات، بينما بقيت نسبة الفئات الأخرى ما بين متوسطة (٣٢.٣٢%) للعزاب، وضعيفة (١.٥٢%) و(٠.٧٤%) للمطلقين والأرامل على التوالي (انظر الجدول رقم ٠٣).

الحالة المدنية	التكرار	النسبة%
أعزب/عزباء	١٧٠	٣٢.٣٢
متزوج(ة)	٣٤٠	٦٥.٤
مطلق(ة)	٠٨	١.٥٢
أرمل(ة)	٠٤	٠.٧٤
المجموع	٥٢٦	١٠٠

جدول(٠٣) يوضح الحالة المدنية للحرفيين (٢٠٠٩)

أما عن التوزيع العمري لفئات الحرفيين، نجد أغلب الناشطين في الفضاء الحرفي بهذه المدينة ينحصر عمرهم ما بين (٣٠-٥٩) سنة بحوالي (٨٠%) بينما مساهمة الفئة الشابة (٢٠-٢٩ سنة) لا تتعدى (٨%) وهؤلاء أغلبهم من الذين تكوّنوا في معهد التكوين المهني بهذه الولاية، ومن الذين ورثوا الحرفة عن الآباء والأجداد وتعلموا معهم بالأسلوب التقليدي (تقليد الآباء والأجداد من أجل تعلم الحرفة). وإن ما يلفت للانتباه هو بقاء حرفيين في النشاط تتراوح أعمارهم ما بين (٧٠- ٨٩) سنة، بنسبة (٣.٦٨ %) من مجموع الحرفيين. (انظر الجدول رقم ٠٤)

فئات السن	التكرار	النسبة%
٢٠-٢٩	٤١	٠٧.٧٩
٣٠-٣٩	١٤٥	٢٧.٥٦
٤٠-٤٩	١٣٩	٢٦.٤٢
٥٠-٥٩	١٢٩	٢٤.٥٢
٦٠-٦٩	٥٢	٠٩.٨٨
٧٠-٧٩	١٦	٠٣.٠٤
٨٠-٨٩	٠٤	٠٠.٦٤
المجموع	٥٢٦	١٠٠

جدول (٠٤) يوضح مساهمة الفئات العمرية في النشاط الحرفي

إن هذا الوضع يعكس التعلق والارتباط الشديد بين الحرفي وحرفته في هذه المدينة وغيرها من المدن الجزائرية. وعلى الرغم أيضًا من أنهم أصبحوا يمثلون الأقلية إلا أن حب الحرفة لم يدعهم يركنون للراحة، حيث أن هذه الفئة تمثل الجيل الأول والثاني الذي تربى على الحرفة التقليدية أثناء الاحتلال الفرنسي وبعد الاستقلال، ولازال شاهدًا على مختلف الحرف القديمة التي كانت تزخر بها المنطقة بعامة والأزقة التي كانت تحتضنها بخاصة. لقد بينت إحصائيات ٢٠٠٩ المتعلقة بعدد المسجلين والمشطوبين في القطاعات الثلاثة للنشاط في الصناعات التقليدية والحرفية أن قطاع الصناعات التقليدية للخدمات يستقطب العدد الكبير من المسجلين، يليه قطاع الصناعات الفنية، ثم الصناعات التقليدية لإنتاج المواد، والجدول التالي يبين ذلك:

القطاعات	التسجيل	النسبة%	الشطب	النسبة%
ص.ت.للخدمات	١٤٢	٤٨	٥٤	٦٣
ص.ت.الفنية	٩٢	٣١	١٣	١٥
ص.ت.إنتاج المواد	٦٢	٢١	١٩	٢٢
المجموع	٢٩٦	١٠٠	٨٦	١٠٠

جدول (٠٥) يوضح التسجيل والشطب
في القطاعات الثلاثة للصناعات والحرف التقليدية

إن النشاطات الخاصة بالخدمات أضحت من اهتمام الأغلبية من الحرفيين، وحسب رأينا إن هذا القطاع له علاقة بكل النشاطات الأخرى، وأن النسبة العالية من المتخرجين من مراكز التكوين تتخصص في الخدمات. بالإضافة إلى ذلك يحظى هذا القطاع بتسهيلات في تقديم الخدمات سواء من حيث المحلات التي لا تتطلب مساحة كبيرة، أو من حيث طبيعة الخدمة المقدمة التي تتطلب التنقل إلى عين المكان (البيوت والمؤسسات والورشات) لتقديم الخدمات اللازمة كالصيانة، والتركيب والتصليح والزخرفة والتزيين والنظافة، وغيرها من الخدمات، والتي أيضًا لا تتطلب تكاليف في الوقت والمواد والعتاد مثل التكاليف التي يتطلبها قطاع إنتاج المواد وكذلك الصناعات الفنية. ولهذه الأسباب نجد حوالي (٤٨%) من الحرفيين يفضلون مجال الخدمات، بينما (٣١%) يذهبون إلى الصناعات والحرف الفنية، والبقية (٢١%) يلجؤون إلى قطاع إنتاج المواد.

هذا عن وضعية النشاط، أما فيما يتعلق بالصعوبات والمعوقات التي تقف أمام الحرفيين، وتؤثر على نشاطهم، حيث تفرض على البعض منهم التخلي عن الحرفة، نستطيع أن نشير إلى عدة أسباب من أهمها:

-غلاء أسعار التجهيزات والأدوات والمواد الأولية اللازمة في الإنتاج.

-مشاكل المحلات وأسعار كرائها، وانعدام التسهيلات للحصول عليها.

- ارتفاع نسب الضرائب وتنوعها.

-البيروقراطية والعراقيل الإدارية في البنوك ووكلات التشغيل المختلفة.

-تقلب الأسعار في السوق وضعف المنافسة أمام الصناعات الحديثة.

-مشكل تكوين الحرفيين القدامى (غياب أي مستوى تعليمي يسمح بالالتحاق بمراكز التكوين) أدى إلى فقدان الفن الحرفي الأصيل، المتوارث عبر الأجيال السابقة. وحتى مخرجات التكوين في مختلف الصناعات التقليدية أصبحت تعاني من البطالة والعراقيل الإدارية لإيجاد محل للعمل.

-غياب تنظيم نقابي يسمح بالدفاع عن حقوق الحرفي.

-ضعف قيمة الدعم كالقروض وبعض التسهيلات الأخرى.

-مشاكل إيجاد فضاءات للتسويق سواء في الداخل أو في الخارج.

-ارتفاع تكلفة المنتوج الحرفي، مما تسبب في ضعف الطلب عليه من طرف المستهلك. فمثلاً صناعة مزهرية وزخرفتها وتجفيفها يتطلب من ٣ إلى ٤ أيام وقيمتها في السوق تفوق ٤٠٠٠,٠٠ دج، هذا السعر ليس في متناول الزبون، وخاصةً الذي يجهل قيمة التكاليف الخاصة بالمنتوج الحرفي.

وكمثال عن بعض المنتجات وأسعارها في السوق، نقدم ما استطعنا أن نقف عليه خلال زيارتنا لقاعة المنتجات المعروضة بغرفة الصناعات التقليدية والحرف بهذه المدينة سنة ٢٠٠٩، كمثال يخص الصوف والجلد.

-زربية تقليدية رمزها HMD/٠١، مقاس٢م/١م قيمتها١٠.٠٠٠.٠٠دج.

-زربية تقليدية رمزها TNF/٠٥، مقاس٢.٨٠م/١.٨٠م قيمتها١١.٠٠٠.٠٠دج.

وإذا حاولنا إجراء مقارنة مع الزربية الصناعية الحديثة، مقاسها ٣م/٢م نجد قيمتها في السوق لاتفوق٣٠٠٠.٠٠دج.

-مقعد جلدي Pouf en cuir (taboret) قيمته٢٠٠٠.٠٠دج، من أهم صعوبات إنتاجه (نقص المادة الأولية)، بالإضافة إلى ذلك فإن إنتاجه وتسويقه يكون حسب الطلب.

وهناك صعوبات أخرى ترتبط بمدة الإنجاز، فلا يشعر بها سوى المنتجون الحرفيون أنفسهم، فمثلاً تصل مدة إنجاز اللباس التقليدي "شدة تلمسانية، أي لباس العروسة" باليد إلى شهر وأكثر، بينما بالآلة الصناعية لا تستغرق مدة انجازه أكثر من ثلاثة أيام. كذلك بالنسبة إلى لباس "الكراكو"، يتطلب شهرين لإنجازه باليد، ونفس الشيء بالنسبة للمنتجات الأخرى الفخارية والجلدية والحلفية (المصنوعة من مادة الحلفاء)، ولهذه الأسباب التي تعكس الواقع الحقيقي للمنتجات الحرفية في تلمسان تدهورت بعض الحرف، واختفت منتجاتها من الأسواق وحتى من البيوت.

خَاتِمَةٌ

لقد تضاءل مردودها واختفت بعض وظائفها الثقافية والاجتماعية، وصرف الناس أنظارهم عن استهلاك المنتوج التقليدي، وأصبح يُنظر إليه فقط كتعبير عن الرومانسية الشعبية وحنين إلى الماضي وتعبير عن حب الوطن وتنمية الإحساس بالتراث، وأصبحت عبارة عن تحفة[٣٦]، تعرض في المتاحف خلال مناسبات وطنية وثقافية، ولم تعد لها وظيفة تؤديها في المجتمع كما كانت في السابق تؤدي وظيفة اقتصادية أساسية (دخل العائلات) واجتماعية (التماسك الاجتماعي والقرابي) وثقافية (تعبير عن فنون ورموز وعادات واعتقادات معينة). وهنا يصدق كلام العلامة ابن خلدون عن الصنائع عندما قال: "إذا لم تكن لها داعية من كافة الناس، فسرعان ما تهجر وتخرب، وتفر عنها القوامة لقلة فائدتهم ومعاشهم منها، والله يقبض ويبسط"[٣٧].

ولكن على الرغم من هذا، فقد احتفظت بعض العائلات والأفراد في تلمسان بهذه الحرف البسيطة كنشاط اقتصادي، بينما تحول المالكين للحرف القديمة بعدما كونوا ثروة مادية إلى أصحاب صناعات حديثة ومتطورة. حيث فرضوا وجودهم بما يملكون من رؤوس أموال سمحت لهم بالتغلب على الصعوبات والمشاكل التي ساهمت في اندثار بعض الحرف واختفاء بعض الحرفيين الصغار. وبعدما تدهورت الصناعات التقليدية لمدة طويلة من الزمن بسبب انشغال الدولة والمؤسسات بالصناعات الحديثة والمتطورة ها هي اليوم تعود لتدعم مختلف الحرف التقليدية وتوفر كل الإمكانيات المادية والقانونية والتجارية لتجعل منها قطاعًا مهمًا يساهم في استرجاع القوة التاريخية والحضارية والاقتصادية للمجتمع الجزائري.

الهَوامِشُ:

(١) مبارك بن محمد الميلي، **تاريخ الجزائر في القديم والحديث**، تقديم وتصميم محمد الميلي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ١٩٧٦، ص ٨٥٨.

(٢) نفسه، ص٨٥٨.

(٣) نفسه، ص٨٥٩.

(٤) نفسه، ص٨٦١.

(٥) براهامي نصر الدين، نص: سيدي محمد نقادي، **تلمسان الذاكرة**، منشورات تالة، الجزائر٢٠٠٧، ص١١١.

(٦) محمد عيلان، "**الفنون الشعبية الجزائرية- واقع وآفاق**"، مجلة التواصل مقاربات سوسيولوجية للمجتمع الجزائري العدد (٦) سنة ٢٠٠٠، ص٢١٤.

(٧) **مجلة الدوحة** – سبتمبر سنة ١٩٨٠ – ص١١٠.

(٨) **ممارسات مغاربية للمدينة**، إنسانيات. عدد (٢٢). أكتوبر- ديسمبر ٢٠٠٣. مجلد٤، ص٥.

(٩) المقدمة، **تاريخ العلامة ابن خلدون**، دار الكتاب اللبناني، مكتبة المدرسة، بيروت، لبنان، ١٩٨٢ ص٧١٤.

(١٠) براهامي نصر الدين، مرجع سابق، ص١٢٤.

(*) كانت العائلات التلمسانية البورجوازية تمارس الحرف التي تتطلب تقنيات دقيقة، مثل النقش على الخشب وخياطة الألبسة الجميلة، وكانت تحافظ على سر هذه التقنيات ولا يطلع عليها إلا أفراد العائلة الداخلية، فكانت بعض هذه العائلات تعمل في منزلها خفية حتى لا يشاهدها أحد، وإذا جاءتها زائرة تتوقف عن عملها وتغطي إنتاجها بستار معين.

(١١) براهامي نصر الدين، مرجع سابق، ص١٢٤.

(١٢) نفسه، ص١٤٨.

(١٣) ثريا نصر، **تاريخ أزياء الشعوب**، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٩٨، ص٢١.

(١٤) نفسه، ص٢١.

(*) أستاذ علم الاجتماع في جامعة القاهرة.

(١٥) نفسه، ص٢٣.

(16) Gandguillaume.G.Nedroma: l'évolution d'une médina. Leiden.E.J.Brill. 1976.p2.

(17) E.Janier: Industries Indigènes de la région des traras .in revue africaine, N(0) 88,1944, P.22.

(18) Grandguillaume. G. op.cit.p2.

(19) Djillali sari. Nedroma en 1966.Annales Algériennes de géographie.2(eme)Année N(o)04 juillet et dec1976.p44.

إبراهيم الحديدي، **أثنولوجيا الفنون التقليدية**، دار الحوار، اللاذقية سوريا،١٩٨٤، ص٢٥.

(٢٠) محمد عيلان، مرجع سابق، ص١٩٩. وكالة الأنباء الجزائرية. **الصناعة التقليدية في تلمسان**: (*www.djazairess.com/aps/112529*)

(٢١) محمد حمداوي، **المجال السكني العائلي في الوسط الريفي التقليدي: الدار والقرية لدى بني سنوس**، إنسانيات عدد ٧. جانفي- أفريل ١٩٩٩، مجلد ١/٣، ص٣٠.

(٢٢) ثريا نصر، مرجع سابق، ص٢٥-٢٩.

(٢٣) دندان سيد أحمد، الحياة اليومية في تلمسان والجزائر (١٩٣٦-١٩٩٦)، ط١ دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة، دمشق، ٢٠٠١، ص٣١.

محمد حسن غامري، **مقدمة في الأنثروبولوجيا العامة "علم الإنسان"**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٩١، ص٩٧.

(٢٤) الحاج محمد بن رمضان شاوش، **باقة السوسان في التعريف بحضرة تلمسان**، ديوان المطبوعات الجامعي، الجزائر، ص٣٢٣. بيار بونت، ميشال إيزار، **معجم الأثنولوجيا والأنثروبولوجيا**، ترجمة وإشراف مصباح الصمد، ط١، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع "مجد"، ٢٠٠٦. ص٣٠٢.

(٢٥) محمد سعيدي، **الاسم: دلالته ومرجعيته، مقاربة أنثروبولوجية**، في وقائع الملتقى: أي مستقبل للأنثروبولوجيا في الجزائر، منشورات كراسك. وهران، الجزائر ١٩٩٩، ص١١٩.

(٢٦) أمين عز الدين، **المدخل في شؤون العمل وعلاقاته**، ط١، مكتبة القاهرة الحديثة. ١٩٦٤ ص١٢٨.

(٢٧) مكسيم رودريتسون، **التاريخ الاقتصادي وتاريخ الطبقات الاجتماعية في العالم الإسلامي**، ترجمة سبيب بيضون، ط٢، دار الفكر الجديد، بيروت. ١٩٨١، ص٣٥.

(٢٨) دندان سيد أحمد، مرجع سابق، ص٣١.

(٢٩) إنسانيات. عدد (٢٢)، مرجع سابق، ص٥.

(٣٠) عدي الهواري، **الاستعمار الفرنسي في الجزائر**، سياسة التفكيك الاقتصادي الاجتماعي (١٨٣٠-١٩٦٠)، ترجمة: جوزف عبد الله، ط١، دار الحداثة، بيروت، لبنان، ١٩٨٣، ص٦٩.

(*) الأقبية المظلمة والقليلة التهوية يعبر عنها بالطارما: وهو فضاء مخصص أو ورشة للإنتاج الحرفي يقع في أسفل المنزل أي الطابق السفلي، لها باب يدخل منه الصناع ويشرف على الطريق، وهي بعيدة عن أعين الناس. ونجد أعلى الطارما فضاء علوي يسمى المصرية وهي بيت في الطابق الأول للترفيه وللاستقبال، ويستعمل أيضًا كمسكن للخدام. أصبح اليوم يستخدم لدى بعض الحرفيين للعمل غيرالرسمي في الحرف وللتهرب الضريبي.

(٣١) **مجلة الجزائرية**. عدد (٨٧). ١٩٨٠. ص١٦.

(٣٢) دندان سيد أحمد، مرجع سابق، ص ٣٢.

(*) تستخدم في صناعة الدراز، حيث كانت هذه الصناعة خاصة بالمنسوجات الصوفية (الأغطية)، وكانت مهنتها مقرونة "بالنول" أو ما يُسمى "بالمرمى الكبيرة"، وهي الأداة الأساسية لعمل الدراز في الورشة.

(٣٣) عبد الغني عماد، **سوسيولوجيا الثقافة، المفاهيم والإشكاليات... من الحداثة إلى العولمة**، بيروت، ٢٠٠٦، ص١٦٠.

(٣٤) موقع وزارة المؤسسات الصغيرة المتوسطة والصناعات التقليدية: (www.ifc.org)

(٣٥) إحصائيات عن غرفة الصناعات التقليدية والحرف بولاية تلمسان.

(٣٦) محمد الجوهري، **الأنثروبولوجيا، أسس نظرية وتطبيقات عملية**، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ٢٠٠٥، ص٥٧٥.

(٣٧) ابن خلدون. **المقدمة**، دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة، بيروت، لبنان ١٩٨٢، ص٧١٩.